مفهوما الصيحة والنداء في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

م. د. أحمد حنون ميس
الجامعة المستنصرية – كلية التربية
قسم علوم القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ليكون سراجاً منيراً، وأرسل رسوله ليكون داعياً ومبشراً ونذيراً، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، صاحب الوحي والمخصوص بالتأييد، وعلى آله ذوي الرأي السديد، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً .

أمَّـــا بعـــد :

فإنَّ كتاب الله تعالى كان ولمْ يزلْ يحوي بين دفتيه كنوزاً عظيمة، وأسراراً جليلة، وهو كما وصفه أمير المؤمنين عليٌّ - **عليه السلام** - : **(ظاهرهُ أنيقٌ، وباطنهُ عميقٌ، لا تفنى عجائبهُ، ولا تنقضي غرائبهُ، ولا تُكشفُ الظلماتُ إلا به)**[1].

وكتاب الله سبحانه خير ما استمسك به المتمسكون، وأسمى ما تدارسه الأولون والآخرون، فمن سلك سبيله فقـد نهج النهج القويم، وسار على الصراط المستقيم، ولذا فقد وجدتني مشدوداً إليه، مقبلاً عليه، انتهالاً من خيره الوافي، واستقاءً من نبعه الصافي، والتماساً للحكم والأسرار من كنائنه ومستودعاته التي لا تنقضي .

ولمَّا كان التفكُّر بآي الكتاب العزيز سبباً لنيل مرضاته سبحانه والتقرُّب منه جلَّ في علاه، فقد شددت رحالي وتوكلت على الله في هذا السّفر لسبر أغوار موضوع (الصيحة والنداء) في كتاب الله تعالى، والذي جاء مقسَّماً على ثلاثة مباحث وخاتمة بنتائج البحث المذكورة على النحو الآتي:

المبحث الأوّل : الصيحة والنداء بالمعنى اللغوي والاصطلاحي

المبحث الثاني: مواضع الصيحة والنداء في آي القرآن الكريم

المبحث الثالث: الدلالات التفسيرية للصيحة والنداء في الآي المبارك

وأمّا الخاتمة فهي عبارة عن عصارة الحقائق التي خرج بها الباحث في هذا البحث وما أفضت إليه الدراسة .

وختاماً فإني أسأله تعالى من خلال هذا المجهود أن يوفقني في قابل الأيام لخدمة ذلك الكتاب المتفرّد بالجاذبية والحيوية الدائمتين، الذي يُسعد النفس إذا انساقت له بما فيه من آيات بالغة وكنوز عظيمة، فإن أصبت فيه فنِعمًا، وإن أخطأت فحسبي أن أحظى بأجر من اجتهد فأخطأ، وكلُّ ابن آدم خطّاء وخيرُ الخطّائين التوابون.

والحمد لله ربِّ العالمين

المبحث الأول
الصيحة والنداء بالمعنى اللغوي والاصطلاحي

أولاً: الصيحة لغةً واصطلاحاً :

1- لغةً :

الصَّيْحَةُ اسمٌ، بفتح الصاد وسكون الياء وفتح الحاء ومعناها: الصوت المرتفع والصراخ الناتج عن عاطفةٍ ما، كالخوف أو الفزع أو الفرح أو اليأس، وجمعها: صَيْحَات وصَيَحَات وصِيَاح[2] .

ومعنى قولهم: سمعتُ صيحةً من بعيد، أي: سمعت صُراخاً، وصاح الطفل، بمعنى: صرخ[3]، والصّياح: مبالغةً في الصائح[4]، وجاء في فقه اللغة للثعالبي: (الصِّيَاح: صوت كلُّ شيء إذا اشتد الصراخ والصرخة الصيحة الشديدة عند الفزعة أو المصيبة)[5] .

2- اصطلاحـاً :

لم يعثر الباحث في مصنفات أهل العلم على تعريف اصطلاحي لمفردة الصيحة، وعدم العثور على تعريف اصطلاحي لهذه المفردة أو غيرها لا يعني غياب مفهومها عن الأذهان، وإنما من باب توضيح الواضحات من أشكل المشكلات – كما يقول الأصوليون[6]- ولاسيّما أنَّ كثيرًا من المباني واضحة المعاني وحاضرة في ذهن المتلقي، لذا لم يحتج أهل العلم إلى إعمال عقولهم في وضع تعريفٍ محددٍ لها.

وعليه فتعذُّر الحصول على تعريف لهذه المفردة لا يكون مانعاً من عدم إيجاد تعريف اصطلاحي لها، لذا يمكن أن تجود قدرة الباحث في وضع تعريف لها من خلال إنعامه النظر بمواضع ورود هذه المفردة في الذكر الحكيم وما أفصحت عنه، يتمثل بالقول الآتي:

الصيحة: عبارة عن صوت شديد، يهدف إلى العذاب، مقترنةً بوقتٍ وجهةٍ معينين، وهي من مختصات جبرائيل والملائكة الموكل إليهم ذلك الأمر.

ثانياً: النداء لغةً واصطلاحاً :

1- لغةً :

النداء لغةً مصدر (نادى) وجمعه (نداءات) وقد أنعم الباحث نظره في معجمات لغة العرب فوجد هذه المفردة –على الأشهر- تفصح عن ثلاثة معانٍ هي:

- الدعاء: ومنه قوله تعالى واصفاً زكريا –عليه السلام- : (**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا**)[7].
- الصوت الخالي من المعنى : ومنه قوله تعالى : (**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً**)[8].

- الدعوة والإعلان : ومنه قولهم : لبَّى فلانٌ نداء ربه ، وقولهم : أصدر الزعيم نداءً لأتباعه[9] .

2- اصطلاحاً :

تعددت التعريفات الاصطلاحية لهذه المفردة تبعاً للحقل المعرفي الذي تنتمي إليه، فالنحويُّ أبانها من وجهةٍ نحوية ، وعلماء العقيدة والكلام أبانوها من وجهة أخرى، وكذا الحال مع المفسرين والمعنيين بالدراسات القرآنية .

وتبعا للدراسة التي سلكها الباحث في هذا البحث فإنه سيظفر بإيجاد تعريفٍ لها من خلال مواضع استعمالها في النَّظْم الكريم والمقام الذي سِيقت لأجله متمثلاً بالتعريف الآتي:

النداء: هو الصوت الصادر من جهة السماء هدفه التبليغ أو الإنذار أو التوجيه أو البشارة وله صيغ ومواقيت متعددة تبعًا للزمان والمكان والحدث، وهو من مختصات جبرائيل - عليه السلام - .

المبحث الثاني
مواضع الصيحة والنداء في آي القرآن الكريم

أولاً: مفردة الصيحة:

لقد وردت مفردة الصيحة في القرآن الكريم في (13) موضعاً، سبعة موارد منها معرفة بـ(أل) التعريف، وفي كل هذه الموارد السبعة جاءت لوصف العذاب الواقع على الأمم السالفة ما عدا مورد سورة (ق) فقد جاءت للإفصاح عن حدث مستقبلي يتمثل بمرحلة النفخة في الصور[10] وقيل: الصيحة الواقعة قبل ظهور الإمام المهدي المنتظر –عليه السلام-[11].

ومواضع ورود هذه المفردة في الذكر الحكيم هي الآتي:

1- قوله تعالى: **(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)**[12] فالصيحة في هذا الموضع جاءت لوصف الهلاك الذي نزل بقوم لوط.

2- قوله تعالى: **(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)**[13] فهنا جاءت لوصف هلاك مدين وهم قوم شعيب.

3- قوله تعالى: **(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)**[14] وهي في هذا الموضع تصف هلاك قوم لوط.

4- قوله تعالى: **(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)**[15] وهنا تصف هلاك أصحاب الحجر.

5- قوله تعالى: **(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً)**[16] وهنا جاءت لوصف أقوام بعد قوم نوح بقرينة الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: **(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ)**[17].

6- قوله تعالى: **(وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)**[18] إذ جاءت هنا لتحديد نوع العذاب النازل بالأمم السالفة.

7- قوله تعالى: **(يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)**[19] فقد جاءت هنا للإفصاح عن أحد الأمرين الذين أشرنا إليهما فيما تقدم.

وهناك ستة مواضع من ضمن المواضع الثلاثة عشر وردت فيها الصيحة بصيغة التنكير لا التعريف وهي:

1- قوله تعالى: **(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)**[20].

2- قوله تعالى: **(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)**[21].

3- قوله تعالى: **(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)**[22].

4- قوله تعالى: (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)[23] .

5- قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)[24] .

6- قوله تعالى: (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)[25] .

ثانياً: مفردة النداء:

وردت مفردة النداء في الآي المبارك من الذكر الحكيم بمواضع متعددة، واشتقاقات مختلفة، في نحو أكثر من (57) موضعًا وقد تعددت فيها أصناف المنادي والمنادى، نوجز ذكر هذه الأصناف على النحو الآتي:

1- **نداء الله تعالى لأنبيائه** –عليهم السلام- ومنه قوله تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[26] وقوله عزَّ من قائل: (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ)[27] .

2- **نداء الأنبياء لله تعالى:** ومنه قوله تعالى: (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)[28] وقوله تعالى على لسان زكريا: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)[29].

3- **نداء الملائكة للأنبياء:** ومنه قوله تعالى: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)[30].

4- **نداء الأقوام والأفراد بعضهم لبعض:** ومنه قوله تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[31]. وقوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)[32].

المبحث الثالث
الدلالة التفسيرية للصيحة والنداء في الآي المبارك

أولا: معاني الصيحة:

من خلال الاستقراء الموضوعي لمواضع ورود مفردة الصيحة في الآي المبارك نستطيع أن نتلمس أبرز تلكمُ الدلالات المستنبطة من خلال إنعام النظر في الترتيل العزيز، نُجملها فيما يأتي:

1- إن الصيحة باتفاق جمهور المفسرين هي صوت مسموع[33] بقرينة قوله تعالى: (**يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**) والاختلاف الواقع في تفسير هذه الآية عند المفسرين من جهة المصداق لا المفهوم[34].

يقول أبو السعود العمادي (ت:982هـ) في تفسير هذه الآية: (**يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ** بدلٌ منْ يومَ يُنادِي وهي النفخةُ الثانيةُ { **بِالْحَقِّ** } متعلقٌ بالصيحةِ والعاملُ في الظرفِ ما يدلُّ عليهِ قولُه تعالَى: {**ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**} أيْ يوم يسمعونَ الصيحةَ ملتبسةً بالحقِّ الذِّي هو البعث يخرجون منَ القبورِ)[35] وواضحٌ من كلام أبي السعود أنَّ المراد بالصيحة هنا الكلام المسموع.

ولم يبتعد محمد سيد طنطاوي عن هذا الرأي إذ يقول: (قوله: **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ** بدلًا من قوله: يَوْمَ يُنادِي، أي: يوم يسمعون صيحة البعث من القبور والحشر للجزاء، سماعًا ملتبسًا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل، والمراد بهذه الصيحة: النفخة الثانية ذلِكَ اليوم هو يَوْمُ الْخُرُوجِ من الأجداث كأنهم جراد منتشر)[36].

ويقول العلامة ناصر مكارم الشيرازي رابطاً سياق هذه الآية بالتي قبلها وهي قوله تعالى: (**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ**)[37] قائلاً: (المخاطب بالفعل «استمع» هو النّبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه إلّا أنّه من المسلّم به أنّ المقصود جميع الناس، والمراد من «استمع» هو الانتظار والترقّب، لأنّ مَن ينتظر حادثة تبدأ بصوت مهول يرى في حالة ترقّب دائماً، فهو منتظر لأن يسمع الصوت، أو هو الإصغاء إلى كلام الله فيكون المعنى «استمع كلام الله» إذ يقول : يوم يسمعون الصيحة إلخ، لكن من هو هذا المنادي؟ يحتمل أن يكون الذات المقدّسة جلّ وعلا، ولكن الاحتمال الأقوى هو «إسرافيل» الذي ينفخ في الصور... وعبارة (**مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ**) إشارة إلى أنّ هذه الصيحة ينتشر صداها في الفضاء بدرجة أنّها كما لو كانت في أذن كلّ أحد، وجميعهم يسمعونها بدرجة واحدة من القرب، وعلى كلّ حال، فليست هذه الصيحة هي الصيحة الاولى التي تقع مؤذنة بنهاية العالم، بل هي الصيحة الثانية، أي الصيحة للنشور والحشر، وفي الحقيقة إنّ الآية الثانية توضيح للآية

السابقة وتفسير لها إذ تقول: (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) من القبور والبعث والنشور)[38].

2- إنّ المراد من الصيحة – في أغلب مواضع ورودها- هو العذاب والهلاك الخاص بأقوام القرون الماضية، ففي قوله سبحانه وتعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) يقول الطبري (ت:310هـ) كاشفاً عن مقصد الاي: (فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعدوا العذاب، وقيل لهم: تَمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام... فما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يجترحون من الأعمال الخبيثة قبل ذلك)[39].

ولم يذهب بن الخطيب (ت:1402هـ) بعيدًا عن هذا المعنى، إذ يقول: (الصيحة: العذاب؛ أو هي مقدمة لكل عذاب. وقيل: صرخ فيهم الملك المأمور بإهلاكهم صباحًا)[40].

3- ومن مواضع ورود (الصيحة) ما جاء يتحدث به عن المنافقين الذين كانوا يحسبون كل ما يسمعون من أمر ما اعتقدوا أنّه خاص أو واقع بهم وقد أشار القران الكريم الى هذا بقوله: (وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)[41].

4- ومن الدلالات المستنبطة من مفردة (الصيحة) الواردة في الذكر الحكيم أنّها وردت في بيان البعث وانتهاء الحياة البشرية، من ذلك قوله تعالى: (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)[42].

3- لقد وردت الصيحة في مواضع الذكر الحكيم بصيغة التأنيث ولم ترد بالتذكير إلا في موضع واحد من سورة هود في قوله تعالى: (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) فنجد الذكر الحكيم تارة يأتي بـ(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) وتارة بـ(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) مع أنَّ الفاعل واحد في كلا الاستعمالين.

4- بما أنَّ الصيحة عبارة عن صوت مختص بإنزال العذاب على الأمم الكافرة فقد حدّدت الأحاديث الشريفة عن النبي وأئمة أهل البيت -عليهم السلام- بأنَّ جبرائيل هو الملك المكلَّف بمهمة إنزال العذاب على تلكمُ الأمم ولعلَّ هذا ما يؤيده قوله سبحانه وتعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)[43].

5- إنّ قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذْتُهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[44] يُفصح عن أنَّ الصيحة بمنزلة قانون أو ظاهرة طبيعية وذلك لاقترانها بظاهرة الخسف، علاوةً على ذلك فإنَّ الأنواع الثلاثة من العذاب التي ذكرتها الآية هي من الأمور الموكلة إلى جبرائيل –عليه السلام- فهو الذي أصاب الأمم السالفة بالصيحة وهو الذي خسف الأرض بقوم لوط وهو الذي أوكل إليه فعل إغراق

قوم فرعون بعد أن فلق الله البحر لموسى –عليه السلام- وعليه فبدون شك أو ريبة يكون هو المحرك الرئيس لكلّ هذه الأحداث .

6- لقد اقترنت الصيحة بوقت معلوم وجهة معينة منها:

أ- قوله تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ) أي من جهة الشرق، وقد سِيق هذا الاستعمال في سورة الشعراء في قوله تعالى: (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)[45] .

ب- قوله تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) أي وقت الصباح[46]، كذلك قد اقترن نزول العذاب بوقت الصباح[47] في موضعين هما:

- قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)[48]

- قوله تعالى: (إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)[49].

3- لقد أفصحت آيات التعبير الكريم عن ثلاثة أقوام قد أهلكهم الله بالصيحة وهم (مدين، لوط، ثمود)، فقال سبحانه: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)[50].

وقال عزَّ من قائل: (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَءاتَيْنَاهُمْ ءايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ* وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ* فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ)[51].

وقال تعالى: (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ* قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ* وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ* قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ* لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ* فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ* وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)[52].

هذه بعض الدلالات المستنبطة من مواضع ورود هذه المفردة في الترتيل العزيز، وهنالك دلالة أخرى للصيحة لم نسلط الضوء عليها في هذا المقام تتمثل بالصيحة الملازمة لظهور الإمام المهدي المنتظر –عجل الله فرجه- بوصفها بحثاً روائياً محضاً ورد التنصيص عليها في أمَّات كتب المسلمين[53]– والامامية على نحو الخصوص[54]- ووجه الشبه بينها وبين الصيحة الوارد ذكرها في القرآن أنها في الآي الحكيم سِيقت للدلالة على وقوع شيء عظيم يستدعي السامع الى الانتباه والفزع، وكذا الحال بالنسبة الى الصيحة الملازمة لظهور الإمام المهدي المنقذ –عجل الله فرجه- فهي دالةٌ على وقوع أمر عظيم لا بدَّ للمتلقي من إدراكه والاستعداد له

ثانيا: معنى النداء وأقسامه:

لأجل الإفصاح عن معنى النداء وأقسامه في الذكر الحكيم لا بد لنا من الاعتماد على ثلاثة أركان أساسية هي النظر إلى المنادي والمنادى ومضمون النداء الذي يمثل الحلقة التواصلية بين الطرفين.

ويُعدُّ التعبير القرآني الكريم من أفصح التعبيرات الأدبية التي أخذ فيها النداء يمارس حيويته ونشاطه، ذلك لأنّه يتصف بتعدد أساليبه والانفتاح على كل جهة يرمي إلى التواصل معها، فالنداء القرآني قد اشتمل بداخله على مدارات واسعة للحدث من حيث البعد الزماني والمكاني، وما عليه الا التجاوب مع تلكمُ المدارات عند مستوىً معين من مستويات نداءاته، فنجد القرآن الكريم قد ساقَ العام وأراد به الخاص[55]، وساقَ الخاص وأراد به العام[56]، ونادى المفرد بصيغة الجمع[57]، والجمع بصيغة الإفراد[58] وغير ذلك، وكلُّ ذلك التنوع لم يكن إلا لتعدد المعنى واتساع الدلالة التفسيرية التي يريد الذكر الحكيم إيصالها إلى المتلقي .

ومن خلال إنعام الباحث نظره في أُمَّات كتب التفسير والدراسات القرآنية سِيقت إلى مخيلته أهم تلكمُ المعاني المستفادة من أقسامه الواردة في آي الذكر العزيز يوجزها على النحو الآتي:

أ- المعنى من جهة العموم والخصوص:

ينقسم النداء القرآني من هذه الجهة على ثلاثة أقسام هي :

1- نداء خاص مراد به الخصوص : ومثاله قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**)[59]، فالنداء هنا مقصور على النبي – صلى الله عليه وآله –.

2- نداء خاص مراد به العموم : ومثاله قوله تعالى : (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء**)[60] فالنداء هنا موَّجه للنبي – صلى الله عليه وآله – إلا أنَّ دلالته تسري على سائر الناس من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة)[61] ونظيره قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ**)[62] .

3- نداء عام مراد به الخصوص : ومثاله قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ**)[63] فالنداء القرآني هنا عام يُراد منه الخصوص وذلك لعدم شموله الأطفال والمجانين فهؤلاء غير مشمولين بالتكليف.

ب- المعنى من جهة المنادى :

ينقسم النداء القرآني من هذه الجهة على ثلاثة أقسام هي:

1- نداء الجنس : ومثاله قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**)[64]، فعلى الأشهر عند المفسرين أنَّ هذا النوع من النداء موجَّهٌ إلى أهل مكة بقرينة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) بوصف الآية مكية[65] .

2- النداء الموجَّه إلى النوع : ومثاله قوله تعالى : (**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**)[66] ، ونظير هذه الآية آيات النداء إلى أقوام الأنبياء كأقوام نوح وعاد وثُبع وغيرهم .

3- النداء الموجَّه إلى الصنف : ومثاله قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)[67] إذ ليس المنادى في هذه الآية الإنسان مطلقاً ولا نوعًا منه وإنما الصنف الموصوف بالإيمان .

4- النداء الموجَّه إلى العين : أي النداء إلى شخص معين، ومثاله قوله تعالى: (**يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ**)[68] .

ج- المعنى من جهة هوية النداء:

ينقسم النداء القرآني من هذه الجهة على الأشهر على ثلاثة أقسام هي :

1- نداء المدح : ومثاله كلُّ آية فيها تعبير : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) ، فقد وُصف المُنادَون بالإيمان وهي صفة أفادت المدح .

2- نداء الذم : ومثاله قوله تعالى : (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**)[69] وللمتأمل في آي القرآن الكريم يجد أنَّ النداء القرآني المتضمّن ذمّ الكافرين لم يكن نداءً مباشراً من الله تعالى، وإنما يقع بوساطة نبيّه – صلى الله عليه وآله – أو على نحو الغيبة للدلالة على أنَّ اسم الخالق لا يُذكر في مقام الذم والتحقير تعظيماً وتقديساً له[70] .

3- نداء التكريم : ومثاله قوله تعالى : (**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا**)[71] .

ء- المعنى من جهة أسلوب النداء :

ينقسم النداء القرآني من هذه الجهة على ثلاثة أقسام هي :

1- نداء الجمع بلفظ الواحد : ومثاله قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**)[72] فالتعبير بـ(إنّك) مفردٌ يدل على الواحد إلا أنَّ القرينة السياقية تُفصح عن أنَّ المراد منه الجمع واستغراق الجنس ، ونظير هذا في قوله تعالى : (**إِنَّ الإنسان لفي خُسرٍ**)[73] .

2- نداء الواحد بلفظ الجمع : ومثاله قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**)[74] .

3- نداء الاثنين بلفظ الواحد : ومثاله قوله تعالى : (**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**)[75] .

يتلمَّس الباحث بعد استعراضه النداءات القرآنية أعلاه ما يأتي:

1- إنَّ النداءات القرآنية بقرينة عدم اختصاص الحكم فيها بطبقة من دون أخرى وعصر من دون آخر، فحينئذٍ تسري أحكامها وتشريعاتها ويشترك فيها الجميع إلى يوم البعث في العموم والشمول من حاضر وغائب .

2- إنَّ النداء بتعبير (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) دالّ على شمولية المؤمن والكافر في التكليف الإلهي ، بخلاف: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) وفي هذا المقام لا بدَّ من الإجابة والإفصاح عن سؤال يدور في ذهن السائل مفادهُ: إذا كانت صيغة (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) تعمُّ المؤمنين والكافرين ، فما سرُّ توجه النداء الإلهي للمؤمنين بصيغة : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) ؟ .

فنقول : إنَّ سبب توجه النداء للمؤمنين وقصره عليهم يكمن – والله أعلم – في أمور متعددة لاحَ للباحث منها :

- إنَّ المؤمنين بصفتهم يمتثلون أوامر الله تعالى ويجتنبون معاصيه بخلاف الكافرين، فقد خصهم الله تعالى بالنداء وحدهم .

- إنَّ الأعمال لا تقبل إلا من المؤمنين، ولذا خصهم الله بالنداء، فالكافرين وإن كانوا مكلّفين إلا أنهم قد فقدوا شروط قبول الأعمال .

- إنَّ المؤمنين فازوا بشرف الإيمان والفضيلة، فصاروا أهلاً لمناداتهم لوحدهم تشريفًا وتعظيمًا لهم.

3- في جميع النداءات القرآنية هناك سمتان أساسيتان هما: تنوع أسلوب النداء بحسب القضية المطروحة وإلزام الحجة على الطرف المنادى .

خاتمة البحث

بعد الخوض في موضوع الصيحة والنداء في آي الكتاب العزيز لا بدَّ للباحث من الإدلاء بأهم النتائج التي ظفر بها بعد معايشة هذه الدراسة لعلَّ أبرزها:

1- إنَّ الصيحة والنداء كلاهما عبارة عن صوتٍ مسموعٍ يدركه المتلقي حال وقوعه والفارق بينهما أنَّ الأول غالباً ما يختصُّ بالهلاك وإنزال العذاب، وأما الثاني فيهدف الى التبليغ أو الإنذار أو التوجيه أو البشارة وله صيغ ومواقيت متعددة تبعًا للزمان والمكان والحدث.

2- لقد تعدد استعمال مفردة النداء في الكتاب العزيز تبعاً لتعدد أصناف المنادي والمنادى واختصاص بعضها بفئة من دون أخرى.

3- سِيق استعمال الصيحة في جميع مواضع ورودها في الترتيل العزيز بصيغة التأنيث لا التذكير الا في موضع واحد هو قوله تعالى: **(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)**[76].

4- يُعدُّ النداء القرآني واحداً من أفصح الأساليب الأدبية إذ اتصف بتعدد أضربه نظراً لاشتماله على مدارات واسعة للحدث من حيث البعد الزماني والمكاني .

5- اشتركت جميع النداءات القرآنية بسمتين أساسيتين هما: التنوع في أسلوب النداء وإظهار الحجة والبرهان على الطرف المنادى.

6- إنَّ النداءات القرآنية من جهة التكليف تسري أحكامها وتشريعاتها إلى يوم القيامة في العموم والشمول من حاضر وغائب بوصفها لا تختصُّ بعصر من دون عصر وطبقة من دون أخرى.

والحمد لله رب العالمين

هوامش البحث

1- المجلسي، بحار الأنوار، 284/2 .

2- ينظر: بن فارس، معجم مقاييس اللغة: 324/3 .

3- ينظر: الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: 384/1 .

4- ينظر: الزبيدي، تاج العروس: 260/6 .

5- الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية: 147/1 .

6- أصل هذا الكلام قاعدةٌ أصولية، تردد ذكرها عِندَ الفُقَهاءِ والمُجتَهدين، الا ان مصداقها ينطبق على مجالات متعددة، ينظر: العاملي، توضيح الواضحات من اشكل المشكلات:5 .

7- سورة مريم: الآية 3 .

8- سورة البقرة: الآية 171 .

9- ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: 250/6 .

10- ينظر على سبيل المثال لا الحصر: بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 305/2.

11- ينظر: القمّي، تفسيره: 327/2.

12- سورة هود: الآية 67.

13- سورة هود: الآية 94.

14- سورة الحجر: الآية 73.

15- سورة الحجر: الآية 83.

16- سورة المؤمنون: الآية 41.

17- سورة المؤمنون: الآية 42.

18- سورة العنكبوت: الآية 40.

19- سورة ق: الآية 42.

20- سورة يس: الآية 29.

21- سورة يس: الآية 49.

22- سورة يس: الآية 53.

23- سورة ص: الآية 15.

24- سورة القمر: الآية 31.

25- سورة المنافقون: الآية 4.

26- سورة الشعراء: الآية 10.

27- سورة الأعراف: الآية 22.

28- سورة هود: الآية 45.

29- سورة مريم: الآية 4.

30- سورة آل عمران: الآية 39.

31- سورة الزخرف: الآية 51.

32- سورة الأعراف: الآية 50.

33- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 155/28 + الزمخشري، الكشاف: 393/4 + الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: 361/18.

34- يقصد بالمفهوم: نفس المعنى بما هو، أي نفس الصورة الذهنية المنتزعة من حقائق الأشياء، والمصداق: ما ينطبق عليه المفهوم، أو حقيقة الشيء الذي تنتزع منه الصورة الذهنية، للمزيد ينظر: المظفر، كتاب المنطق، باب المفهوم والمصداق: 44.

35- العمادي، إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم: 135/8.

36- طنطاوي، التفسير الوسيط 398/3.

37- سورة ق: الآية 41.

38- الشيرازي، الامثل: 61/17.

39- الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن: 127/17.

40- بن الخطيب، أوضح التفاسير: 317/1.

41- سورة المنافقون: الآية 4.

42- سورة يس: الآية 53.

43- سورة البقرة: الآية 98.

44- سورة العنكبوت: الآية 40.

45- سورة الشعراء: الآية 60.

46- ينظر: الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب: 484/11.

47- ينظر: ابن عباس، تنوير المقباس: 450 + ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3736/7.

48- سورة القمر: الآية 38.

49- سورة هود: الآية 81.

50- سورة هود: الآية 94-95.

51- سورة الحجر: الآية 80-83.

52- سورة الحجر: الآية 67-77.

53- ينظر: السيوطي، الدر المنثور: 712/6 + ينظر: العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: 493/6.

54- ينظر: الكليني، الكافي: 310/8 + ينظر: بحار الانوار: 161/51.

55- ينظر الميبدي، قواعد التفسير: 187.

56- ينظر: المصدر نفسه: 203.

57- ينظر: المصدر نفسه: 181.

58- ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

59- سورة المائدة: الآية 67.

60- سورة الطلاق: الآية 1.

61- هذا المقطع مجتزئ من بيت شعري يعود الى قائله سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ الْفَزَارِيُّ الَّذي خاطبَ بِهِ امْرَأَةً، وَهُوَ يَقْصِدُ أُخت حَارِثَةَ بْنِ لأْمِ الطَّائِيِّ، للمزيد ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان: 340/6.

62- سورة الأحزاب: الآية 1.

63- سورة الحج: الآية 1.

64- سورة النساء: الآية 1.

65- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/5.

66- سورة البقرة: الآية 40.

67- سورة البقرة: الآية 183.

68- سورة هود: الآية 76.

69- سورة الكافرون: الآية 1.

70- ينظر: أسرار العربية، الانباري: 198 .

71- سورة البقرة: الآية 35.

72- سورة الانشقاق: الآية 6.

73- سورة العصر: الآية 2.

74- سورة المؤمنون: الآية 51.

75- سورة طه: الآية 49-50.

76- سورة هود: الآية 67.

قائمة المصادر

- القرآن الكريم

1- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت: 577هـ)، أسرار العربية، دار الارقم بن ابي الارقم، القاهرة- مصر، ط1، 1420هـ.

2- ابن عباس، عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (ت : 68هـ)، تنوير المقباس من تفسير بن عباس، جمعه : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: 817هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، د. ط ، د. ت .

3- ابن فارس، أبو الحسين بن زكريا القزويني (ت : 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح : عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت – لبنان، د . ط ، د . ت .

4- أبو زهرة، محمد بن احمد بن مصطفى (ت: 1394هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1414هـ.

5- بن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف (ت: 1402هـ)، أوضح التفاسير، المطبعة المصرية، القاهرة- مصر، ط6، 1383هـ.

6- بن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الكلبي (ت: 741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تح: عبد الله الخالدي، شركة الارقم بن ابي الارقم، بيروت-لبنان، ط1، 1416هـ.

7- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت: 429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ.

8- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت : 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط4، 1407هـ .

9- الدمشقي، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل (ت : 775هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تح : عادل أحمد وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1419هـ .

10- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (ت : 606هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ، ط3 ، 1420هـ.

11- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت : 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح : مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت – لبنان، ط1، د . ت.

12- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت : 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط3 ، 1407هـ.

13- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت : 911هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1416هـ.

14- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر (ت : 1393هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان ، ط1 ، 1418هـ.

15- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، قم – إيران، ط1، 1421هـ .

16- الطباطبائي، محمد حسين (ت : 1402هـ)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط2، 1422هـ .

17- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت : 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تح : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ .

18- طنطاوي، محمد سيد (ت: 1431هـ)، التفسير الوسيط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، ط1، د.ت.

19- العاملي، جعفر مرتضى، توضيح الواضحات من أشكل المشكلات، المركز الإسلامي للدراسات، قم- إيران، ط2، 1430هـ.

20- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر الشافعي (ت: 852هـ)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط1، 1379هـ.

21- العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (ت : 982هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان ، د. ط ، د. ت .

22- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت : 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن ، تح : أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة – مصر، ط2 ، 1384هـ .

23- القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (ت: 329هـ)، تفسير القمي، مؤسسة الامام المهدي، طهران- إيران، ط1، 1411هـ.

24- الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت: 329هـ)، الكافي، تح: دار احياء التراث، مركز دار الحديث، قم- ايران، ط3، 1399هـ.

25- المجلسي، محمد باقر (ت : 1111هـ)، بحار الأنوار، تح : محمد تقي مصباح ومحمد الباقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط3، 1403هـ.

26- المظفر، محمد رضا (ت: 1383هـ)، كتاب المنطق، تح: رحمة الله الأراكي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم-إيران، ط1، 1413هـ.

27- الميبدي، محمد فاكر، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، طهران – إيران، ط1، 1428 .